

الأدب الجزائري بعيون الاستشراق الفرنسي

The Algerian Literature through the Eyes of French Orientalism

1 د. فاطمة زهراء ختو*

2 أ.د. ميمون سهيلة

جامعة الجبلالي اليابس سيدي بلعباس، (الجزائر)، والإيميل khattoufatima24@gmail.com

تاريخ الارسال 2025-10-19 تاريخ القبول 2025-11-16 تاريخ النشر 2025-12-17

ملخص:

أسست الدراسات الاستشراقية للأدب الجزائري حقلا معرفيا ضخما بهدف تشكيل فهم غربي عن الجزائر وتاريخها وحضارتها وفكرها وفلسفتها وأدبها. ندرس من خلال هذه الورقة البحثية المشروع الاستشراقي في دراسة الأدب الجزائري، من خلال الاطلاع ومعالجة نصوصه و قراءة تمثلاته والإشارة إلى خلفياته المعرفية والإيديولوجية. الكلمات المفتاحية: استشراق - أدب - معرفة - منهج - التأثير - تراث.

Abstract: Orientalist studies of Algerian literature have established a vast body of knowledge aimed at shaping a Western understanding of Algeria, its history, civilization, schools of thoughts, philosophy, and literature. This paper examines the Orientalist project in the study of Algerian literature through an exploration and analysis of its texts, a reading of its representations, and a discussion of its epistemological and ideological foundations.

Keywords: Orientalism, literature, knowledge, methodology, influence, heritage.

المقال :

1. مقدمة:

يمثل الاستشراق نقطة التحول في تاريخ أوروبا والعالم الغربي نتاج احتكاكهم بالعرب والثقافة الإسلامية، إذ تأثروا بحضارتهم وفكرهم وفلسفتهم، وأسلوب حياتهم، لتتبلور هذه الاهتمامات لاحقا ضمن ما عرف بظاهرة الاستشراق التي تحولت إلى مشروع فكري قائم بذاته له أسسه ومنهجه في دراسة حياة الشرق.

يشكل الأدب الجزائري فصلا هاما من فصول الأدب العربي بقاموسه ولغته وثقافته، رغم الظروف التي حالت بينه وبين ذيوع صيته منذ نشأته، والفرص القليلة التي أتاحت لنشره¹.

2. الإبداع:

* المؤلف المرسل: د. فاطمة زهراء ختو

يشكل الأدب الجزائري فصلا هاما من فصول الأدب العربي بقاموسه ولغته وثقافته، رغم الظروف التي حالت بينه وبين ذيوع صيته منذ نشأته، والفرص القليلة التي أتاحت لنشره².

1.2 . الشعر:

مرّ الشعر الجزائري الحديث بتحويلات في الشكل والمضمون. إلّا أنّ أغلب مواضيعه ركزت على المقاومة، نشر الوعي الوطني والدعوة إلى الثورة. "الأغراض التي تناولها الشعراء كثيرة، وتكاد تكون هي أغراض الشعر العربي المعهودة، فنحن نلاحظ أنّ شعر الفخر والهجاء ما يزال يواصل مسيرته، أمّا الرثاء والمدح والغزل والتوسل فهو ملح الطعام في كل العصور"³. هذه الأغراض تمثل جوهر الشعر العربي منذ الجاهلية، وقد استمر الشعراء في معالجتها لأنّها تعبر عن مشاعر الإنسان وتجارب حياته. وانقسم الشعر الجزائري خلال هذه الفترة إلى اتجاهين:

2.2.1. الاتجاه التقليدي المحافظ:

كان هذا الاتجاه أكثر حضورا خلال هذه الفترة، ويرجع ذلك إلى جملة من الظروف السياسية والثقافية والاجتماعية التي أحاطت بالشاعر الجزائري آنذاك، وتعود أسباب ذلك:

التكوين الثقافي السلفي: فقد درس جلهم في الكتاتيب والزوايا، واعتمدوا على القرآن الكريم كمصدر أساسي في تكوينهم حفظا ودراسة وتفسيرا جعل منه الركيزة الكبرى في مشروعهم الإصلاحي لمقاومة تأثيرات الثقافات الأجنبية الدخيلة⁴. وهذا ما يبرز دور التعليم الديني الثقافي في تشكيل وعيهم وموقفهم من الغزو الثقافي.

ويؤكد لنا زعيم الحركة الإصلاحية الشيخ عبد الحميد بن باديس من خلال قوله في مجلة الشّهاب: "إننا والحمد لله نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم، وتوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكون القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق الأمة آمالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها"⁵. دلالة على أهمية القرآن ومكانته في مشروعه التربوي لبناء جيل واع.

التعلق بالأدب العربي القديم: يعد الأدب العربي القديم من أبرز المؤثرات في الشعر الجزائري الحديث، فساهم بجزالة لغته وقوة تعابيره، لكنه في المقابل قيّد التجديد الفني وكسّر الأساليب التقليدية على حساب التعبير المعاصر.

ولعل اهتمام الشعراء الإصلاحيين بالأدب القديم يرجع لسببين أساسيين هما:

أولاً: عناية الحركة الإصلاحية بالتراث، لتكون النهضة الأدبية في الجزائر مبنية على أسس التراث العربي القديم.

ثانياً: رفضهم التفاعل مع الثقافة الفرنسية بسبب نظرة مثقفي المغرب العربي لفرنسا آنذاك⁶. وهذا يفسر تمسكهم بالأسلوب القديم، إذ رأوا فيه حصنا لهويتهم في وجع الاستعمار الثقافي.

التأثر بمدرسة الإحياء العربية: "أحسب أنه من العوامل الأساسية التي ساعدت على انتشار أدب مدرسة الإحياء في الجزائر، اتّجاه الحركة الإصلاحية، وموقفها السلفي الواضح من قضايا الفكر والثقافة. فما كان إعجاب الحركة الإصلاحية بأدباء النهضة العربية وشعرائها يتوقف عند حدود القراء، والمتابعة، ولكنّه تجاوزها إلى حدود

التشرب والتقليد، فكان المدرسون يحفظون قصائد شوقي، وحافظ، والرصافي، ويحفظونها بالتالي لتلامذتهم، ويعطونهم أبياتا منها يطلبون منهم تشطيرها أو تخميسها، أو معارضتها، ويعقدون لهذا منافسات يرصدون لها جوائز تشجيعية"7. مما يعكس مدى تأثير مدرسة الإحياء في التكوين الأدبي للإصلاحيين، وحرصهم على ربط الناشئة بروح النهضة.

لقد تبني عدد من الشعراء الجزائريين الاتجاه التقليدي المحافظ، ومن أبرزهم: محمد العيد آل خليفة، البشير الإبراهيمي، بلقاسم خمار، عبد الرحمان الديسي... حيث حافظوا على شكل القصيدة العمودية والتزموا بالمواضيع الكلاسيكية، ومن بين هؤلاء يبرز الشاعر أحمد سحنون في قصيدته "جمعية العلماء أدت رسالتها"، التي تعد نموذجا لهذا التوجه، حيث يقول:

هذي الجزائر لا خابت أمانيتها قد وحدثها جراح تعانيتها
الظلم أيقظ أهلها بما وبني من ضعفها قوة لا العدل بانيتها
وليس كالظلم يحدو أمة قعدت عن العلا وببث العزم وانيتها
فهات من شعرك العذب الجميل وصنع أغنية لشجي النفس عانيتها8.

يتضح من خلال هذه الأبيات اعتماد الشاعر على الأسلوب التقليدي من حيث الشكل والمضمون، حيث التزم بالوزن والقافية، مع تناول موضوع وطني.

الاتجاه التجديدي الرومنسي: ظهر هذا التيار كرد فعل على النزعة التقليدية في الشعر العربي، التي ارتكزت على تقليد النماذج القديمة في البناء والأسلوب والموضوعات، والذي جاء متأثرا بالثقافات الغربية نتيجة البعثات العلمية وحركة الترجمة، وتطور الصحافة.

سعى الشعراء من خلاله للتعبير عن قضاياهم الذاتية والإنسانية، والانفتاح على الخيال والطبيعة، كما جسّد رغبتهم في التجديد والتجربة الفنية الجديدة. "وقد اجتمعت عوامل داخلية وأخرى خارجية لبلورة هذه التجربة الحداثية التي نزع أصحابها إلى التجديد، مخالفين نهج الشعر التقليدي الذي تزامن في الظهور مع الشعر الرومانسي. وعموما كانت التجربة الشعرية الرومانسية الجزائرية موافقة في سماتها الفنية العامة للتجربة الرومانسية العربية، وليس ذلك غريبا لأنّ الشعراء الجزائريين انفتحوا على الثقافة العربية ونهلوا من معينها عبر قنوات مختلفة كانت الصحافة واحدة منها"9. مما يؤكد أنّ الرومانسية الشعرية في الجزائر لم تكن معزولة، بل كانت جزءا من التيار العربي العام.

حيث كان لها الدور الكبير في التعريف بالحركة الأدبية التجديدية للمشاركة خاصة مجلة الشهاب التي يعود لها الفضل الكبير في نشر أعمال شعراء المهجر، أمثال: إيليا أبي ماضي، جبران خليل جبران، نسيب عريضة، ميخائيل نعيمة وغيرهم10 وهذا يؤكد دور الصحافة، خاصة مجلة الشهاب في ربط الأدب الجزائري باتجاهات التجديد في المشرق. الأمر الذي ساعد على تشكيل وعي نقدي وجمالي جعلهم أكثر استعدادا لتبني مفاهيم جديدة في التعبير الشعري، وتجاوز النماذج التقليدية بما يتماشى مع متغيرات المرحلة وسياقاتها الثقافية.

ومن هنا "أخذ الشعر الجزائري في هذه الفترة يتجه اتجاها واضحا إلى التعبير عن المشاعر الفردية، وظهرت فيه انعكاسات التجربة الذاتية بعد أن كانت نظرة الشاعر تغطي عليها الغيرية وشعر المناسبات" 11. وذلك يعكس تحلل الشعر الجزائري نحو التعبير الشخصي والذاتي بدلا من الشعر التقليدي المرتبط بالمناسبات.

"والفرنسيون أنفسهم يقرون بأن أدبنا الشرقي أثر في أدبهم الرومانسي ليس من حيث بنيته فقط، بل إنه قدم له أزهى صور الوصف، وضربوا مثلا على هذا كاتبتهم الأشهر "شاتوبريان" في رحلته من باريس إلى القدس، وشاعرهم العظيم "هيجو" في مشرقياته، وكاتبهم وشاعرهم "لامارتين" برحلته إلى الشرق" 12. مما يدل على التأثير المتبادل بين الأدب العربي والأدب الفرنسي، مما يعزز أهمية التواصل الثقافي بين الشرق والغرب.

وكان الشاعر الجزائري رمضان حمود من الأوائل الذين دعوا للتجديد في النظرة للغة على أساس ذاتي ووجداني، واعتماد الصدق الفني والاستجابة لروح العصر والواقع 13. الأمر الذي يؤكد على وعيه بمواكبة التطور وتحديد التعبير الشعري بما يتناسب مع روح وإلى جانب رمضان حمود برز العديد الشعراء الذين تبنا الاتجاه التجديدي أمثال: محمد السعيد الزاهري، محمد العيد آل خليفة، مبارك جلواح...

ويعتبر النقاد قصيدة "طريقي" لأبي القاسم سعد الله الانطلاقة الأولى للشعر الحر في الجزائر، وقد نشر في جريدة البصائر في عددها 331 بتاريخ 25 مارس 1955 منها هذا المقطع:

يا رفيقي

لا تلمني عن مروي

فقد اخترت طريقي

وطريقي الحياة

شائك الأهداف مجهول السمات

عاصف التيار وحشي النضال

صاغت الأنات عريد الخيال 14.

جاءت القصيدة من حيث الشكل على نمط التفعيلة، بعيدة عن النظام التقليدي، أما من حيث المضمون فتعكس تجربة ذاتية ترمز إلى التمرد على الواقع والسير في طريق وعي ونضال فردي.

2.2 النشر:

يشهد النشر الجزائري في العصر الحديث تحولات عميقة تعكس تطور المجتمع وتفاعله مع التغيرات السياسية والثقافية. فقد انتقل من الطابع التقليدي إلى التعبير عن قضايا الإنسان الجزائري خلال فترة الاستعمار، مستجيبا لمطالبات الوعي الوطني والهوية الثقافية. ويعكس التحولات الكبرى في الجزائر، حيث تنوعت أشكاله بين القصة والرواية والمقالة، وأخذت بعدا نقديا وفنيا أسهم في إثراء المشهد الأدبي.

ومن أبرز الفنون الثرية التي برزت في هذه الفترة نذكر:

2.2. 1. المقالة: "لقد خاضت المقالة الأدبية في معظم الموضوعات، وتعلقت بأهم الأسباب التي كانت تشغل أذهان المثقفين في الجزائر، وفي الوطن العربي بوجه عام... ومما شاع على أqlامهم في هذه الفترة الموضوعات الأدبية، والدينية والإصلاحية والاجتماعية والتاريخية والعلمية. في حين أنّ الوصف لم يحظ لديهم إلا بالاهتمام الضئيل. ولعل العلة في ذلك واضحة، فوصف الطبيعة يندرج في باب الذاتيات، بينما كان الكتاب الجزائريون ملتزمين بالقضايا الوطنية التزاما بلغ حد الغلو. فلم يكونوا يعالجون غالبا إلا ماله علاقة بالحياة العامة، أي ما كان له صلة وثقى بقضايا الشعب الجزائري"15. تعكس هذه المواضيع الدور الفعال الذي أدته المقالة الأدبية كوسيلة للنقد والتوجيه، مما منحها مكانة متميزة في المشهد الثقافي، باعتبارها أداة للتأثير الفكري والتعبئة المجتمعية خلال تلك المرحلة.

ارتبط ظهور المقالة الأدبية في الجزائر ببروز الصحافة، إذ شكلت هذه الأخيرة المنبر الحقيقي الذي أتاح للكتاب فرصة التعبير عن آرائهم، وساهمت في بروز الوعي الثقافي. وساعدت عوامل أخرى على تطور هذا النوع من الكتابة، من بينها الرغبة في التعبير الحر، واحتدام الصراع الفكري بين المثقفين. وفي هذا الإطار أشار الأستاذ عبد المالك مرتاض إلى أن المقالة الأدبية كثيرا ما تتعد عن الطابع الأكاديمي الصارم، وتميل إلى تغليب العاطفة والانطباعية تارة، أو تمزج بين المتعة الفكرية والجمالية تارة أخرى، لا سيما عند تناولها لمواضيع أدبية ومسرحية، حيث تنوعت المواضيع بين ما هو سياسي وما هو اجتماعي يعالج قضايا تمس واقع الناس16. ممّا يبرز دور الصحافة في نشر الوعي الثقافي وتنوع أشكال المقالة بين الفكر والعاطفة بما يخدم واقع المجتمع.

ومما يلاحظ كذلك أنّه "كان للمقالة الأدبية أيضا رجالها، ومن هؤلاء رمضان حمود الذي عاش عمرا قصيرا، وكان مثالا للشباب الطموح. نشر مجموعة من المقالات النقدية حول الأدب والشعر، وحول الجمود والتقليد والتراث والتجديد، وكان صوتا ثائرا على التقاليد البالية وعلى من سماهم عبيد التقليد وأعداء الاختراع، وقد نشر مقالاته في جريدة الشهاب، ثمّ جمعها ونشرها في كتاب بعنوان بذور الحياة"17. وهذا ما يبين دور رمضان حمود في دعم التجديد النقدي ومناهضة الجمود الأدبي في تلك المرحلة.

2.2. 2. الرواية:

تعتبر الرواية الجزائرية الحديثة من أبرز أشكال التعبير الأدبي التي رافقت تحول المجتمع الجزائري. فقد أصبحت مساحة للتأمل في الواقع، ووسيلة لطرح التساؤلات حول الهوية، والتاريخ، والانتماء.

ومع ظهور أصوات مختلفة واهتمام متزايد بهذا النوع الأدبي، استطاعت الرواية الجزائرية أن ترسخ حضورها ضمن الأدب العربي المعاصر، بما تحمله من خصوصية موضوعية وجمالية. " فالحديث عن الرواية الجزائرية الحديثة، يوضح أنّها كانت أسيرة لقصص الثورات والمآسي التي عاشتها الجزائر. فلم تستطع الخروج عن دائرتها، فاتّخذت منها مادة حكاية شكلت بداياتها ونهاياتها، وزمنها من خلال القرائن التاريخية والاشارات الزمنية التي يوظفها الخطاب الروائي"18. يمثل ذلك انعكاسا واقعيا لمعاناة الجزائر وتجاربها التي شكّلت جوهر الرواية الحديثة فيها.

تكاد الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية تكون معدومة خلال فترة الاستعمار الفرنسي، بسبب سياسته في محاربة اللغة العربية والثقافة الوطنية، من خلال محاربة التعليم بها، كما أنّ ظروف القمع والتضييق على حرية التعبير حالت دون انتاج أعمال سردية باللغة العربية أو نشرها، فلم تظهر الرواية بالعربية كجنس أدبي واضح إلا بعد الاستقلال و"تعتبر رواية غادة أم القرى لأحمد رضا حوحو البداية الفنية الأولى للرواية الجزائرية التي انتهت صاحبها من تأليفها في أول جانفي من سنة ألف وتسعمائة وسبعة وأربعين ميلادية، وهي نتيجة الفترة التي عاشها مع أسرته في الحجاز ما بين سنتي 1934 و1946"19.

أمام سياسات التضييق التي طالت اللغة العربية، أصبحت محاولات الكتابة الإبداعية بها شبه معدومة آنذاك، وفي المقابل برزت محاولات أدبية جزائرية باللغة الفرنسية كوسيلة للمقاومة والتعبير عن قضيتهم. ويرى كاتب ياسين صاحب رواية "نجمة" أنّ اللغة الفرنسية غنيمة حرب، وفي الحرب لا يهم أن تكون البندقية ألمانية أو فرنسية أو روسية، ويتبنى زميله طرحه فيقول: "أنا أكتب بالفرنسية لأقول للفرنسيين أنّي جزائري"20. وعلى الرغم من الجدل الذي ظلّ قائما حول هوية هذا الأدب بسبب اللغة إلا أنّه برزت العديد من الأعمال التي كانت تحمل بين أسطرها ملامح الذات الجزائرية الأصيلة وتعكس روح المقاومة، من خلال تحويل لغة المستعمر وسيلة لكشف جرائمه.

من بين هذه الأعمال: ثلاثية الدار الكبيرة لمحمد ديب التي ترصد واقع الجزائر أثناء فترة الاستعمار من خلال شخصية عمر، وتظهر معاناة الشعب بداية من الحياة اليومية الصعبة، مروراً بالغضب الشعبي، وصولاً لوعي سياسي يمهّد للثورة. أيضا رواية نجل الفقير لمولود فرعون التي تصور يوميات فتى جزائري فقير خلال نفس الفترة مركزة على وعيه التدريجي بالظلم والتحرر، إضافة لرواية نجمة لكاتب ياسين، التي يصور من خلالها الصراعات الاجتماعية في الجزائر أثناء الاستعمار من خلال البطلة نجمة والرجال الأربعة الذين تصارعوا على الفوز بجبها في صورة رمزية.

2.2.3. المسرح:

كان الجزائريون قبل الاحتلال يمثلون عن طريق خيال الظل المعروف بالكراكوز، وقد وصفه المستشرقون الأوروبيون في كتاباتهم الانطباعية عن المجتمع الجزائري، وظلّ مزدهرا حتى سنة 1830، ومع الاحتلال اتخذ أساليب جديدة. ومنعت السلطات الفرنسية هذا الفن المسرحي تماما مع بداية الأربعينيات، وجعلت عقوبات صارمة ضد من يمارسه21. يمثل ذلك تأثير الاحتلال الفرنسي في تغيير وسائل التعبير الثقافي، ومحاولة فرض لغة وثقافة جديدة على الجزائريين.

و"لعل من أبرز الذين أرسوا دعامة الفن المسرحي في الجزائر وحاولوا إدراجه ضمن الوسائل التثقيفية في الأوساط الشعبية هو الأمير خالد الذي نشأ في كنف الأسرة الجزائرية المسلمة والتي وقفت في مواجهة العدو الغاصب، وبحكم وجود الأمير خالد بفرنسا للدراسة، فقد اطلع على أهمية المسرح في إيقاظ الأمة، فطلب من الممثل المصري جورج أبيض حين التقى به في باريس 1910، أن يبعث له ببعض المسرحيات لتمثيلها في الجزائر، وعند عودته للقاهرة أرسل عدة مسرحيات سنة 1911، منها: مسرحية ماكبث لشكسبير تعريب محمد عفت المصري، و مسرحية

المروءة والوفاء لخليل اليازجي، ومسرحية شهيد بيروت للشاعر حافظ إبراهيم، وأسس الأمير خالد في السنة نفسها ثلاث جمعيات فنية، الأولى في العاصمة والثانية في البليدة والثالثة في المدية²². يعكس ذلك حرص وجود الأمير خالد في نشر المسرح كأداة ثقافية وتربوية لتعزيز الوعي الوطني في الجزائر.

تعد الدراسات المتعلقة بالمسرح في الجزائر خلال القرن التاسع عشر محدودة، واتّسمت غالبا بسطحية الطرح، مما انعكس على فهم الجوانب التاريخية والفنية لهذا الفن، ومع ذلك ظهر نص مسرحي واحد "نزهة المشتاق وغصة العشاق" لأبراهام دانيوس، يعود تاريخ كتابته إلى 1847، وتشير بعض الدراسات إلى أنها من أولى النصوص المسرحية في الوطن العربي، جاءت المسرحية ضمن كتاب عنوانه "الحركة المسرحية عند يهود البلاغة العربية في القرن التاسع عشر" للأستاذين ش. موريه وفيليب سادجروف²³. ذاك ما يدل على الجذور المبكرة للمسرح في الجزائر، رغم قلة الاهتمام البحثي الذي ناله في تلك الفترة.

3. النقد:

يعدّ النقد الأدبي الجزائري جزءا أساسيا من الحركة الثقافية والفكرية في الجزائر، اذ رافق تطور الأدب وأسهم في توجيه الذوق الأدبي، متأثرا بالتحويلات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي عرفت البلاد. ومّر بمراحل ساهمت في نموه ونضجه:

1.3. المرحلة الأولى: بدأت مع مطلع القرن العشرين، وتميزت بالنقد التقليدي الذي ركز على البلاغة واللغة، مع أسماء بارزة مثل: أبو القاسم الحفناوي، وعبد القادر المجاوي، وكان يقدم في المحاضرات والدروس والصحف.

2.3. المرحلة الثانية: مثلها عبد الحميد بن باديس، وركز على الدعوة للعودة للتراث القديم، وغلب عليه الجانب الإصلاحي.

3.3. المرحلة الثالثة: مثلها البشير الإبراهيمي الذي اهتم بتوجيه الحركة الأدبية ونقد الأعمال عبر الصحافة الوطنية، مع التركيز على الجودة والابتكار.

4.3. المرحلة الرابعة: بدأت بعد الحرب العالمية الثانية، وظهرت فيها تيارات نقدية حديثة متأثرة بالمذاهب الأدبية الأوروبية، مثل الواقعية، مع أسماء برزت مثل أحمد رضا حوحو، وحمزة بوكوشة²⁴. يظهر هذا التطور مراحل تشكل النقد الأدبي في الجزائر، وتفاعله مع التحويلات الفكرية والاجتماعية.

4. الترجمة:

لعبت الترجمة أثناء الاستعمار الفرنسي دورا محوريا في تسهيل الاتصال بين الإدارة الاستعمارية والشعب الجزائري، كما كانت وسيلة لنشر الثقافة الفرنسية وترسيخ الهيمنة الفكرية، مما جعلها جزءا من السياسات الاستعمارية لفرض الهيمنة والسيطرة على جميع الأطراف.

"أول من فتح عهد الترجمة هم رجال الحملة الفرنسية، ولقد استعان قادتها بعدد من الترجمة الذين كانوا في فرنسا عندئذ، سواء كانوا فرنسيين وهم قلة، أو كانوا من عرب المشرق ويهوده الذين ارتبطوا بالفرنسيين بعد حملتهم

على مصر. فقد وفرت مدرسة اللغات الشرقية الفرنسية عددا من المترجمين الذين كانوا في الحملة الفرنسية على مصر، وأورد شارل فيرو وغيره أسماء بعض الذين جندهم الجيش الفرنسي لحسابه ليشاركوا في حملة الجزائر وما بعدها²⁵. هذا ما يظهر أنّ ظهور الترجمة في الجزائر ارتبط بالاحتلال الفرنسي، حيث استخدمت كأداة لخدمة أهداف الاحتلال الثقافية والسياسية.

ومن أبرز هؤلاء المترجمين نذكر:

- جورج غروي: من مواليد دمشق، وكان يتكلم العربية بطلاقة.
- جان شارل زكار: ولد أيضا بسوريا 1789، وانتقل إلى فرنسا وأصبح قسا في كنيسة القديس نقولا في مارسيليا.
- أبراهام دانيوس: من مواليد الجزائر 1797، ولعله من نسل اغريقي أو يوناني، وقد تجنس بالجنسية الفرنسية قبل الاحتلال، وأصبح يشغل وظيفة مترجم في محكمة التجارة بباريس .
- جوني فرعون: كان ملحقا ومترجما لقادة الاحتلال، ومن مترجمي اللجنة الافريقية²⁶.

5. الطباعة:

ارتبط ظهور الطباعة في الجزائر بفترة الاحتلال الفرنسي، حيث كانت وسيلة هامة في نشر وتوسيع النشاط الأدبي والفكري رغم القيود التي فرضها الاستعمار على حرية النشر والتأليف. والمطابع الفرنسية في الجزائر كانت كثيرة، وكانت مهياة لطباعة مختلف المؤلفات بما في ذلك الجرائد والكتب والمنشورات، والبطاقات والسجلات التجارية والإعلانات، ومع انشاء المطابع توسعت حركة النشر وأصبح في كل مدينة رئيسية مطبعة فرنسية تجارية، أقدمها مطبعة براشيه وباستيد ثم تحول اسمها إلى باستيد وجوردان، بعد أن تولاهما أدولف جوردان، وكان مقرها في ساحة الحكومة الشهداء (حاليا)، ثم تحولت إلى مطبعة كاربونيل، وانتقلت إلى ناحية باب الواد قرب مستشفى مايو القديم، وفي البلدة تأسست مطبعة بروسبير روادو، وانتقلت سنة 1853 إلى سيدي بلعباس²⁷. هذا ما يوضح هيمنة المطابع الفرنسية على حركة النشر في الجزائر، ما ساعد على ترسيخ الوجود الثقافي الاستعماري في مختلف المدن.

وأول مطبعة عربية في الجزائر هي مطبعة رودوسي قدور التي أصبحت تعرف فيما بعد بالمطبعة الثعالبية. وبعد الحرب العالمية الأولى أنشأ بعض الجزائريين المطابع في العاصمة وقسنطينة ومستغانم ووهران وبسكرة، لطبع الصحف التي عزموا على إصدارها حتى لا يبقوا عالة على المطابع الفرنسية²⁸. هذا ما يعكس بداية وعي الجزائريين بأهمية امتلاك أدواتهم الطباعية، ما شكل خطوة نحو الاستقلال الثقافي عن الهيمنة الفرنسية.

6. وسائل الاستشراق الفرنسي في الجزائر:

اعتمد الاستشراق الفرنسي في الجزائر على وسائل تسعى لفهم المجتمع المحلي، ولكنها ارتبطت بشكل وثيق بالمشروع الاستعماري وتعزيز مصالحه، من خلال الأبحاث اللغوية، وجمع المخطوطات، ودراسة العادات الاجتماعية.

تمكن الاستعمار من خلال هذه الأدوات المعرفية من بناء صورة شاملة عن الجزائر سمحت له بإحكام قبضته بوسائل تتجاوز العنف المباشر ومن بين هذه الوسائل نذكر:

1.6. اللجان العلمية:

"والمعروف أنّ المعلم الأول للدراسات الاستشراقية الفرنسية في الجزائر تمثل في أعمال اللجنة الإفريقية التي وصلت إلى الجزائر بتاريخ 2 سبتمبر 1833. وكان هدفها الأساسي جمع المعلومات المختلفة عن حالة الجزائر وبناء تصور حول مستقبلها، ممّا أتاح للجنة دراسة المجتمع الجزائري منذ بداية التواجد الاستعماري ممّا أوحى للإدارة الاستعمارية إنشاء جمعيات ولجان علمية بمساعدة المستشرقين، والتي بلغ عددها عشية اندلاع الثورة سنة 1954 تسع عشرة جمعية"29. يكشف تأسيس اللجنة الإفريقية عن البعد المعرفي الذي رافق الاستعمار، حيث استخدمت الدراسة الأكاديمية كوسيلة لفهم المجتمع الجزائري بهدف إحكام السيطرة عليه.

2.6. لجنة ترجمة الكتب العربية:

أسسها الحاكم العام جول كامبون سنة 1894، وكان الغرض منها إعداد ونقل الكتب العربية إلى اللغة الفرنسية، لاسيما الكتب المدرسية أو ذات الطابع التعليمي الذي تقرر استعماله في المدارس الشرعية الثلاث. وكان المشرف على اللجنة بيرسفيل، كاتب عام للحكومة العامة، وكانت اللجنة تتألف من أساتذة فرنسيين، ومن مترجمين عسكريين تابعين للحكومة العامة30. هذا ما يعكس توجه الإدارة الاستعمارية نحو التحكم في المحتوى التعليمي الموجه للجزائريين، من خلال اختيار وترجمة ما يخدم أهدافها التربوية والإيديولوجية.

وكان تحقيق ونشر بعض المؤلفات من قبل محمد بن أبي شنب، وكتابة معجم التراجم (تعريف الخلف) لأبي القاسم الحفناوي، ونصوص بوليفة ضمن هذا المشروع31.

3.6. الجمعيات الاستشراقية:

برزت في فرنسا العديد من المنظمات الاستشراقية، من بينها الجمعية الآسيوية التي تأسست سنة 1822، والتي تصدر مجلة عن المسيحيين في الشرق تعنى بدراسة مناطقهم ولغاتهم وحضارتهم32. حيث شكّلت منبرا لنشر أبحاث المستشرقين، وتعزيز حضور الفكر الاستشراقي في الأوساط العلمية والثقافية. "وكان رئيسها المتوفى سنة 1838، وقد شارك في المجلة الآسيوية عدد غير قليل من المستشرقين الفرنسيين الذين استقروا بالجزائر، منهم بنجامين فانسان، وشيربونو. وأمّا الجمعية الشرقية فقد تأسست في باريس سنة 1841، وأصدرت مجلة الشرق، وجاء في قانونها الأساسي أنها تنسق بين أعضاء المعهد الفرنسي والقناصل والرحالة"33. تشير هذه الوسائل إلى تنوع الأساليب المستخدمة لاكتشاف المجتمع الجزائري بمختلف أبعاده سواء بدافع علمي أو دوافع أخرى خفية، وهذا ما يجعل دراسة هذه الوسائل أمرا ضروريا لفهم خلفيات الخطاب الاستشراقي الفرنسي حول الجزائر.

7. مراحل الاستشراق الفرنسي في الجزائر:

1.7. المرحلة الأولى 1830-1879م:

اتّسمت هذه المرحلة بتطور في حركة الترجمة لدى العسكر الفرنسيين، من مترجمون إداريون وآخرون قضائيون، وقد اشتغل المستشرقون في اللجان العلمية والجمعيات المتخصصة ونشروا أبحاثهم للتعريف بالشعب المحتل تاريخه ومظاهره، استند هؤلاء إلى حلقات اللغة العربية للعمل في ميدانهم، وكان أساتذة هذه الحلقات هم رواد الحركة الاستشرافية في هذه المرحلة. فقد علموا اللغة العربية وأشرفوا على امتحانات الترجمة وترجمة النصوص والتعريف بالمدن والآثار والمخطوطات والسير، وحتى من أصدر القواميس. وقد زار الجزائر خلال هذه المرحلة عدد من الأدباء والفنانين الفرنسيين المهتمين بحياة الشرق وكانت زيارتهم بدعم وتشجيع من الحكومة الفرنسية³⁴.

تعكس هذه المرحلة الدور التمهيدي الذي لعبه الاستشراق في خدمة المشروع الاستعماري، من خلال توظيف الترجمة وجلب النخبة المثقفة إلى الجزائر، فالمعرفة المنتجة لم تكن معزولة عن السياق السياسي بل ساهمت في تشكيل قاعدة تهدف إلى تسهيل السيطرة على المجتمع الجزائري وفهم بنيته الثقافية والاجتماعية.

2.7. المرحلة الثانية 1879-1930م:

تم الانتقال في هذه المرحلة إلى الاهتمام بالتعليم العالي، فكان قانون 20 ديسمبر 1879 الخطوة الأولى في هذا المجال، حيث تم الاتفاق على إنشاء ثلاث مدارس للتعليم العالي (الآداب، الحقوق، والعلوم) إلى جانب مدرسة الطب التي كانت موجودة منذ 1857³⁵. وأدخل نظام السيمينار الألماني وأعيد تنظيم السوربون، كما ظهرت مدرسة دورخايم 1858-1917 في علم الاجتماع والاستشراق. وأنشئ كرسي للغة العامية الجزائرية في باريس ثم آخر للبربرية، وانعقد في الجزائر المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين تحت إشراف رينيه باصيه عميد الاستشراق الفرنسي بالجزائر آنذاك.

تعكس هذه المرحلة انتقال الاستشراق الفرنسي في الجزائر من الجهود الفردية إلى العمل المؤسسي المنظم، من خلال الاهتمام بجانب التعليم العالي، ويعكس انعقاد مؤتمر المستشرقين في الجزائر الرغبة في إعادة توجيه الدراسات الاستشرافية نحو شمال إفريقيا ضمن إطار منظم، ما يدل على سعي مدروس لإدماج المعرفة ضمن مشروع استعماري يعتمد على التنظيم الأكاديمي.

3.7. المرحلة الثالثة 1930-1962م:

تميزت هذه المرحلة بالتوسع في إنشاء المعاهد المتخصصة كمعهد الدراسات الشرقية، ومعهد الأرصاد الجوية الفيزياء الفلكية في 1931، معهد الدراسات الصحراوية في 1937، ومعهد التهيئة العمرانية في 1942، ومعهد التربية البدنية والرياضية في 1944، ومعهد الدراسات السياسية في 1949. تحويل المدارس الشرعية إلى ثانويات مزدوجة (الجزائر، قسنطينة، تلمسان)، لهدف استكمال فرنسة التعليم والقضاء على اللغة العربية³⁶.

ويبدو أنّ الاستشراق الفرنسي قد عرف هزة عنيفة مع الحرب العالمية الثانية، وثورة الجزائر، والحرب الباردة، ومن أبرز المستشرقين في هذه المرحلة هنري بيريز، ليفي برونفصال، وكانتينو، وروبير برونشفيك.

8. الخاتمة:

أُتضح من خلال ما سبق أنّ:

* الأدب الجزائري خلال تلك الفترة لم يكن منعزلاً عن واقعه، بل كان وسيلة للتعبير، وفعل مقاومة تحركه رغبة الحفاظ على الذات ومواجهة محاولات طمس الهوية والشخصية العربية الجزائرية. وقد أسهمت مختلف أشكال التعبير الأدبي من شعر ونثر ونقد، إلى جانب الترجمة والطباعة، في تشكيل مشهد ثقافي متنوع يعكس تفاعل المثقف الجزائري مع ظروفه وواقعه.

* ضمن هذا السياق، برز اهتمام فرنسي تحركه دوافع معرفية وسياسية في آن واحد، من خلال مشروع استشراقي مدروس، وظّف فيه المستشرقون وسائل متعددة، استناداً إلى خلفيات معرفية وإيديولوجية شكلت رؤيتهم للثقافة الجزائرية، وأنتجت خطاباً معرفياً عن الآخر.

* تبلور هذه الملامح في نصوص بعض المستشرقين الفرنسيين، كان من المهم متابعة مسار هذا الخطاب وتأثيره، لتتضح معالم انشغالهم المعرفي حول الأدب الجزائري وكل ما ينتمي للثقافة الجزائرية، من خلال معالجة نصوصه وقراءة تمثالاته.

* المدرسة الاستشراقية الفرنسية سخرت جميع مواردها المادية والبشرية لتحقيق غايتها في الظفر بالتراث العربي والجزائري.

* الاستشراق الفرنسي بالجزائر مرّ بثلاث مراحل (المرحلة الأولى من 1830 إلى 1874، المرحلة الثانية من 1874 إلى 1930، والمرحلة الثالثة من 1930 إلى 1962) والجزائر كانت ميداناً خصباً لحركة الاستشراق الفرنسي.

* طمس الاستشراق الفرنسي للهوية الجزائرية من خلال الاستيلاء على أهم المكتبات والمخطوطات والظفر بها.

* الاستشراق الفرنسي في الجزائر لم يركز على الأدب الرسمي النخبوي، بل أولى اهتماماً خاصاً بالأدب الشعبي، والفكر الصوفي، وتعلم اللغة العربية الفصحى والعامة، وجمع المخطوطات، باعتبار هذه الأشكال التعبيرية هي الأقرب إلى وجدان عامة الناس، الأمر الذي جعلها مدخلاً لفهم البنية العميقة للمجتمع الجزائري، وتسهيل فرض الهيمنة عليه، متجاوزاً بذلك أشكال الأدب النخبوي الرسمي.

9. الهوامش:

1 - ينظر: أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، الجزائر، دار الرائد للكتاب، ص 21.

2 المرجع نفسه، ص 22.

3 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 8، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص 191.

4 ينظر: د. محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، ط 2، دار الغرب الإسلامي، ص 43.

5 محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، ط 2، دار الغرب الإسلامي، ص 43، نقلاً عن مجلة الشهاب.

6 ينظر، المرجع نفسه، ص 46.

7 المرجع نفسه، ص 52.

8 أحمد سحنون، الديوان الثاني، ط 1، 2007، ص 25.

- 9 خميسي شرقي، تجربة الشعر الرومانسي الجزائري: بداية المسار نحو التجديد، مجلة قراءات، مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، جامعة بسكرة، ص133.
- 10 زرارقة الوكال، الشعر الجزائري الحديث من المحافظة والتقليد إلى الانفتاح والتجديد، مجلة الباحث: فصلية دولية أكاديمية محكمة، العدد9، أبريل2012، جامعة الأغواط، ص215.
- 11 محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، ص93.
- 12 المرجع نفسه، ص86.
- 13 ينظر، نفسه، ص333.
- 14 أبو القاسم سعد الله، ديوان، ناثر وحب، دار الأدب، بيروت، 1967، ص11.
- 15 عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص93.
- 16 ينظر، د. عبد المالك ضيف، المقال الأدبي في النثر الجزائري الحديث، محاضرات في النثر الجزائري الحديث، المركز الجامعي عبد الحفيظ بو الصوف ميلة، ص2.
- 17 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ط1، ص72.
- 18 رجاء بلشير، الرواية الجزائرية الحديثة تحت مظلة الواقعية، مجلة الآداب واللغات، العدد1، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، ص6.
- 19 أمينة فيزاري، البناء الفني في قصة غادة أم القرى لأحمد رضا حوحو، مجلة اللغة العربية، العدد3، 2023، ص214.
- 20 قردان الميلود، الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية إشكالية الهوية أو البحث عن الذات، جامعة تلمسان الجزائر، ص48.
- 21 ينظر، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، ص134.
- 22 صالح مباركية، المسرح في الجزائر، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، ص37.
- 23 ينظر، المرجع نفسه، ص26.
- 24 ينظر، أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ص80-81.
- 25 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص145.
- 26 ينظر، المرجع نفسه، ص145-147.
- 27 ينظر، نفسه، ج5، ص308-309.
- 28 ينظر، نفسه، ج5، ص308-309.
- 29 حنيفي هلايلي، المستشرقون الفرنسيون في خدمة الإدارة الاستعمارية بالجزائر 1830-1962، جامعة سيدي بلعباس، ص150.
- 30 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص98.
- 31 المرجع نفسه، ص99.
- 32 ينظر، د. سعدون الساموك، الاستشراق ومناهجه في الدراسات الإسلامية، ص113.
- 33 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص90.
- 34 ينظر، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 6، ص12-13.
- 35 بغداد خلوفي، التعليم العالي بالجزائر أثناء الحقبة الاستعمارية، مجلة المواقف للبحوث، الدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد 10، الجزائر 2015، ص168.
- 36 بنظر، رشيد بن قسيمة، المدرسة الاستشراقية الفرنسية وجهودها في جمع المخطوطات العربية وتحقيقها وترجمتها إبان فترة احتلال الجزائر (1830-1962)، مجلة إشكالات اللغة والأدب، العدد 2، 2021، ص207.

10. قائمة المراجع:

المؤلفات:

1. أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، الجزائر.
2. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، بيروت، دار الغرب الإسلامي 1998.

3. أبو القاسم سعد الله، ديوان، نائير وحب، دار الأدب، بيروت، 1967.
 4. أحمد سحنون، الديوان الثاني، ط1، 2007.
 5. محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، ط2، دار الغرب الإسلامي.
 6. لخميسي شرفي، تجربة الشعر الرومانسي الجزائري: بداية المسار نحو التجديد، مجلة قراءات، مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، جامعة بسكرة.
 7. عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
- المقالات:**
8. زراقة الوكال، الشعر الجزائري الحديث من المحافظة والتقليد إلى الانفتاح والتجديد، مجلة الباحث: فصلية دولية أكاديمية محكمة، العدد9، أبريل2012، جامعة الأغواط.
 9. عبد المالك ضيف، المقال الأدبي في النثر الجزائري الحديث، محاضرات في النثر الجزائري الحديث، المركز الجامعي عبد الحفيظ بو الصوف ميلة.
 10. رجاء بلشير، الرواية الجزائرية الحديثة تحت مظلة الواقعية، مجلة الآداب واللغات، العدد1، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان.
 11. أمينة فيزازي، البناء الفني في قصة غادة أم القرى لأحمد رضا حوحو، مجلة اللغة العربية، العدد3، 2023.
 12. بغداد خلوفي، التعليم العالي بالجزائر أثناء الحقبة الاستعمارية، مجلة المواقف للبحوث، الدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد 10، الجزائر 2015.
 13. رشيد بن قسيمة، المدرسة الاستشراقية الفرنسية وجهودها في جمع المخطوطات العربية وتحقيقها وترجمتها إبان فترة احتلال الجزائر (1830-1962)، مجلة إشكالات اللغة والأدب، العدد 2، 2021.

الرسائل:

14. قردان الميلود، الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية إشكالية الهوية أو البحث عن الذات، جامعة تلمسان الجزائر.
- صالح لمباركية، المسرح في الجزائر، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع.
15. حنيفي هلايلي، المستشرقون الفرنسيون في خدمة الإدارة الاستعمارية بالجزائر 1830-1962، جامعة سيدي بلعباس.